

## ثنية الوداع\*

### للاستاذ على الطنطاوى

بيد كأنها بحر معلق حبال الأفق ضائع بين السماء والأرض ...  
لم تضح ولم تقرب

فشقت هذا السكون وصحت بالدليل ( محمد المَطْوَى )

— يا محمد ! إيش تكون هذه الجبال ؟

— فقال : هذه ياخوى جبال المدينة ، وحتّا ( ونحن )

إن شا الله الظهر فيها

— قلت : ما تقول ؟

ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والحول عن عاتق ، وأحسنت  
كأن قد صبّ في أعصابي عزم أمة ، وقوة جيش ، وظننت أنى  
لو أردت السحاب لئلته ، ولو غالبت الأسد لفلبيها ، ولو قبضت  
على الصخر لفتته ، وجملت أقفز وأصرخ ، لا أعى ما أنا فاعل ،  
قد استخفى الفرح ، وسرّنى من هذه الكلمة أكثر ما يسرّنى  
أن يقال لى : أنت أمير المؤمنين  
وصحت بأصحابي فقاموا كالأسود

\*\*\*

عاجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل ، وملنا بها عن  
هذه الكتبان حتى ألقيناها عن إيماننا ، وانتهينا الى أرض شديدة  
درجت عليها السيارات ، فاستندت الى النافذة ، وأطلقت نفسى  
تطير في سماء الأمانى ، فلم أدع صورة للمدينة إلاّ تصورها ، وأقربها  
أمام عينيّ ، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال ، فلا  
أطمئن إليها ، ولا أجدها إلاّ دون ما في نفسى ... ولم يكن يربطنى  
بالأرض إلاّ صوت الدليل ، وهو يهتف بالسائق :

— سرّيننا ، مل شمالاً ، بل بين هذين التلين ، دع هذه  
القارة على العينين ، احترس من هذا الشعب ، تنكب هذه الرملة ..  
ثم يعود السكون

سرنا أربعين كيلاً أخرى ، ولا تزال هذه الجبال تلوح في  
الأفق كأنها خيال حلم بعيد ، يشعّ منها نور غريب ، يومض  
من وراء القفر ، كما يومض الأمل المشرق في ظلمة اليأس ، وكنا  
قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبرين ، ودخلنا في أودية  
مالها آخر غابت عنا فيها الجبال التي كنا نراها ، فننتأس بمرآها  
وقاسينا فيها الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه  
المسالك ، ولم يكن فينا من ينبس ، إلاّ أن يمرض لنا جيل  
أو شعب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه في دفترى الذى سرّ :

منى فى آخر الرحلة ... ثم أرجع الى صمى الطويل

(أ)



مضت ساعة كاملة ،  
ونحن نعالج السيارة  
لنخرجها من الرمل ،  
زفيمها طوراً بالآلة الرافعة  
وطوراً بأيدينا ، ونزج  
الرمال من طريقها ، ثم  
نعدّ لها ألواح الخشب  
لتمشى عليها ، ونجرّها  
بالجبال ، ونُدفعها بالأيدى  
حتى إذا سال منا العرق ،  
ونال منا التعب مشت على  
الألواح ، حتى إذا وصلت

إلى نهايتها ، عادت ففاصت فى الرمل الى الأبواب ...  
فأيسنا وبلغ منا الجهد ، وهدّنا الجوع والتعب والحرق  
والعطش ، فألقينا بأنفسنا على الرمل صامتين مطرقين ،  
حيارى قانطين

وتلفت فم أر إلاّ الرمال المحرقة ، تمتد الى حيث لا يدرك  
البصر ، متشابهة الناظر ، متائلة المشاهد ...

فى سهم تشابهت أرجاؤه ، كأن لون أرضه سماؤه ، فرحت  
أفكر فى هذه السبعة عشر يوماً ، وما قاسينا فيها من الجزع والتعب  
والجوع والعطش ، وأتصور الند الرهيب الذى ينفد فيه ماؤنا  
وزادنا ، ويلفتحنا فيه سموم الحجاز وشمس المحرقة ، فأرتجف من الرعب  
وجعلت أحدى النظر فى هذا الأفق الرحيب ، لعلى أرى قرية  
أو خياماً ، فلا أرى إلاّ لبح السراب ، ولا أبصر إلاّ هذه الجبال  
التي طلعت علينا أمس فاستبشرنا بها وابتهجنا وظنناها قرية  
منا ، فسرنا مائة وعشرين كيلاً وهى قيد أبصارنا ، تلوح لنا من

فلما زال النهار ، صاح بي الدليل :

— هيه . انت يال كاتب . اكتب : هذا أحد !

— فصحت : اذن قد وصلنا

— فقال : ما قلت لك الظهر ، هذا أحد ، بق نصف ساعة .

لم يكن يدري الدليل الاعرابي أى ذكريات انبعثت في نفسه حين قال : هذا أحد ! وأى عالم تجلى لعينى ، فرأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين ، قد منحهم الله أكتاف العدو ، ورأيت الرماة إذ يزلون عن أماكهم ، يبتدرون الفنائم ، وخالدًا حين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغرثهم الدنيا ، ورأيت النبي صلى الله عليه وسلم ثابتًا مثل أحد ، وحوله صحابته القراميطيين ، يذبون عن الدين ، ويمحون سمى النبوة ، ثم أبصرت هناك قائمة على جثة البطل السمينع ، سيد الشهداء ، وكان قد أكل في بدر كبدها ، فأرادت أن تأكل كبده ، فشققت عنها فاستخرجتها فلا كتبها ، فلما وجدت فيها صلادة الصوان لفظتها وأبصرت النبي صلى الله عليه وسلم واقفًا عليه يسكى ، فلما رأى ما مثل به شفق ، ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه ، ثم قال : زحك الله يا عم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، فوالله لئن أظفرتني الله باليوم لأمثلن بسبعين منهم ، فابرح حتى هبط عليه الوحي ، فقام يتلو قول الله جل وعز : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فانصرف وقد عفا

ورن في أذنى صوت أبى سفيان : أهل هبل ، قتلتم ، فأرأيت هبل ، ولا شيمة هبل ، وإذا هو قد درج مع من درج ، لم يبق إلا الله الأعلى الأجل ، ثم سمعت صوت أبى سفيان رن في أذنى مرة ثانية ، يخرج من هناك من أرض الشام ، التي فتحتها لهم سيد العالم ، قوبًا شديدًا ، ينادى في المعركة الجراء ، بصوت سمعه كل من في البرموك :

يا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات ، يا معشر المسلمين . فتبتوا وجاهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها فهي لهم ولأبنائهم الى يوم القيامة ، ورأيت مئات من مثل هذه الصور ، فأحسست كأنما انتقلت الى العهد الأول ، أشهد هبوط الوحي ، وأرى جلال النبوة وعزرة الاسلام . . . ونظرت ، فإذا أحد لا يزال بعيدًا ، يترض هذا الراوى

الذى نسير فيه مشرقًا بهيبًا ، تومض عروقها المختلفة الألوان من الأخضر البهى ، إلى الأحمر المشرق ، الى الأزرق اللامع ، فتمتزج هذه الألوان وتختلط ، فيكون لها في العين أبهى منظر ، وفي القلب أسهى شعور ، فازداد بي الشوق ، فأقبلت أحتث السائق وأستعجله ، أود لو تطوى له الأرض طياً أو يطير بنا الى المدينة طيرانًا ، فلا أرى السيارة ترم مكانها ، وأجد أحدًا لا يزال بعيدًا ، فأعود فأستحث السائق . . . ومالى لا أسرع إلى أحد وأحبه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحد جبل يحبنا ونحبه . ومالى لا أزداد شوقًا الى المدينة ، وليس بيني وبينها إلا ربع ساعة ؟

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

\*\*\*

ولما خرجنا من الوادى ، وانتهينا الى القضاء الرحب ، رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين ، ورأينا سلمًا وهو جبل أسود عال ، يقوم جبال أحد فيحجب المدينة وراه ، فلا يبدو منها إلا جانب الحرة ، وطرف النخيل ، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فغن إلى المدينة :

ألا ليت شعرى هل أيتن ليلة بسلع ولم تطلق على دروب  
وهل أحد باد لنا وكأنه حصان امام المقربات جنيب  
يحب السراب الضحل بيني وبينه فيبدو لعيني تارة وينيب  
فان شغافى نظرة ان نظرتها الى أحد والحمران قريب  
وانى لأرعى النجم حتى كأننى على كل نجم فى السماء رقيب  
وأشتاق للبرق اليماني إن بدا وأزداد شوقًا أن تهب جنوب

\*\*\*

وكان علينا أرتال من الفبار والأوساخ ، فاستحينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ندخل مدينته ونسلم عليه ، ونحن على مثل هذه الحال ؛ وكانت البساتين والحيطان قريبة منا ، فسرنا اليها ، نخب في الرمل ، فلما دنونا من أحدها ، سمعت غناء موقعا على ناي ، كأشجى وأطرب ما سمعت من الغناء فتعجبت ، ثم ذكرت أن أهل المدينة مذ كانوا أطرب الناس وأبصرهم بالغناء ، وهممت بالدخول ، ثم أحجمت وقلت :

لعل المغنى امرأة ، فلقد كان الذى سمعت صوتًا طريًا رقيقًا لا يكون إلا لامرأة أو غلام ، ثم حانت منى التفاتة ، من فرجة

والفارابي وابن سينا وابن رشد

من هنا خرج خالد وسعد وقتيبة وطارق وسيف الدولة والعاقي

من هنا خرج حسان والفرزدق وجريرواوتام والمتنبى والممرى

من هنا خرج الجاحظ وأبو حيان وابن حزم

من هنا خرج ألف ألف عظيم وعظيم

تقدست أيها المدينة ... أم المدن ، وظئر العظاء ؟

\*\*\*

وكنا قد بلننا هذا المضيق الصخري ، بين هضبتى سلع ،

فنزرت في خريطة للمدينة كانت منى ، وقلت للدليل : أما هذا

ذباب ؛ قال : بلى والله فايدريك أنت ؟

قلت : أما هذا مسجد الراه ؟ قال : بلى . قلت : هذه هي

ثنية الوداع ، وخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وخالطني شعور بالهية

من دخول المدينة ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

على ما في نفسي من الفرح والسرور ، وجملت أتأمل المدينة ،

وقد دوننا منها ، حتى لقد كدنا نصير بين البيوت ، وأحدق

في القبة الخضراء التي يثوى تحتها أفضل من مشى على الأرض

وقد شخص بصري وكدت لا أرى ما كان حولي لقرط ما أحس

من جيشان العواطف في نفسي ... حتى غامت المشاهد في عيني ،

وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء ، وأحسنت كأنى

قد خرجت من نفسي ، وانفصلت من حاضري وذهبت أعيش

في عالم طلق لا أرفيه لقيود الزمان والمكان ، فسمعت أصواتاً آتية

من بعيد ... من بعيد ، وسمعتها تزداد وتقوى ، حتى تبينت فيها

قرع الطبل ، ووعيت أصوات الولائد ، يضربن بالدفوف وينشدن :

طلع البدر علينا من « نيات الوداع »

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها ، فلأ الناس الحرة وسدوا

الطرق ، وغطى النساء الأسطحة ، ولم يبق في المدينة أحد إلا خرج

لاستقبال سيد العالم ، وهو قادم ليس معه صلى الله عليه وسلم

إلا الصديق الأعظم ، لا يلعب على جبينه التاج الرصع ، ولا يحمل

في يده صولجان الملك ، ولا تسير وراءه العساكر والجنود ،

ولكن يضيء على جبينه نور النبوة ، ويحمل في يده هدى

القرآن ، وتسير وراءه الأجيال ، ويتبعمه المستقبل ، وتحف به

الملائكة ، ويؤيده الله !

الباب ، فإذا الغنى عند أسود كالليل ، وإذا الذى حسبه ناباً

ناعورة يديرها جل ، لها مثل صوت النواخير في حماء لكن

سوتها أرق وأحلى ، وإذا هذا السور الذى تلمعه الصحراء برمالها

كما تقرب الأواذى سخرة الشاطى ، قد عرش على جانبه

الآخر الياسمين ، وأزهر عليه الفل ، وظلته الأشجار وحناء عليه

التخل ، ورأينا الماء يهبط على الساقية ، كأنه ذوب اللجين ، ثم

يجرى فيها صافياً عذباً متكرراً ، فجتنا برؤية الماء الجازى ، ولم

نكن قد رأينا منذ سبعة عشر يوماً ، الامرة واحدة في العلا ،

واقترحنا الباب ، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا ، وأرجلنا ،

ونقرب به وجوهنا ، ثم لا نشبع منه ولا ننصرف عنه ، حتى

أرحتنا رائحة الحياة ، فاستلقينا على الأرض ننظر الى الصحراء

الهائلة ، التي أفلتنا منها وضرب بيننا وبينها بسور له باب ،

باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب

\*\*\*

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاء نظيفة ، وتطيننا ، ثم ركبنا في

السيارات الى المدينة ، فلم تقطع سلماً حتى بدت لنا المدينة

كصفحة الكف ، يحف بها التخليل ، وتكتنفها الحار ، وتقوم

في وسطها القبة الخضراء ، تشق بنورها عنان السماء ، وتكشفت

لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال ، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال

من هنا خرج جند الله الثلاثة الى بدر ، فدكوا صرح

الاستبداد والجهالة ، ورفعوا منار الحرية والعلم ، أقاموه على جماجم

الشهداء ، وسقوه هاتيك السماء ، فأضاء نوره الجزيرة كلها ،

ثم قطع الرمل ، فأضاء الشام والعراق ، ثم قطع البحر فأضاء الهند

واسبانية ، فاهتدى به الناس الى طريق الكمال الانساني

من هنا خرج الأبطال الذين هدموا وبنوا وعلموا : هدموا

الدول المتفسخة الجاهلة التي وقفت في طريق الحضارة ، فلامى

تتقدم بها ولاهى تدعها تمشى في طريقها . وبنوا الدولة التي ألفت بين

فلسفة يونان وحضارة فارس وحكمة الهند ، وجعلتها جميعاً سفراً

واحداً فاتمته القرآن ، وروحه الاسلام ، ثم جلسوا على منابر

التدريس في جامعات بغداد ومصر وقرطبة ليملموا العالم ، فكان

من تلاميذهم ملوك أوروبا وبلادها ...

من هنا خرج أبو بكر وعمر ، وعبد الملك والنصور والرشد

وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين وسليمان القانوني

من هنا خرج أبو حنيفة ومالك وسفيان والنزوى والنزالي

تنظر يميناً وشمالاً ، حتى أتت دار بنى مالك التجار فبركت عند باب المسجد ، ثم ثارت وبركت في مبركها الأول فزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، وكان المسجد مرهداً للغلامين يتيمين في المدينة ، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثت الهدى في الأرض !

\*\*\*

ونظرت فاذا السيارات أمام باب السلام ، فاشترأت الأعناق وبرتت الأبصار ، ودمعت العيون ، وخفقت القلوب ، وتعالى الهتاف ، وكانت حال لا سبيل الى وصفها قط فزلنا ودخلنا المسجد نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ..

عن النظاري

ثم سار وسارت وراءه هذه الجموع إلى القرية التي لبثت قرونًا ضائعة بين رمال الصحراء ، لا يدري بها التاريخ ، ولم تسمع بها القسطنطينية ، ولم تعلم بوجودها روما ، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض إلى المشرق اليمانيين الذين جعلوا بأسهم بينهم ، فلم تمتد عيونهم إلى أبعد من هذه الحرار ، ولم يطعموا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً ، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر ، ويسلمهم مفاتيح الأرض ، ويضع في أيديهم القلم الذين يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة ، فأطاعوا ولبوا ، ثم مشوا إلى القادسية واليرموك ، ثم أصبحوا سادة العالم ، ورأيت الأنصار يستبقون إلى إزاله صلى الله عليه وسلم والتشرف به ويصيحون به :  
هلم يا رسول الله إلى القوة والمنة ، فيقول : خلوا سبيلها فانها مأمورة ، ويدعها تمشي وقد أرخى لها زمامها ما يجر كمامها وهي

## شركة مصر للملاحة البحرية

نبدأ بمشيئة الله رحلات فصل الصيف هذا العام ابتداء من أول مايو القادم وستطبق الشركة أجور السفر الصيفية على هذه الرحلات منذ بدئها هذا فضلاً عما أدخلته الشركة على بواخرها من وسائل الراحة والرفاهية

الباحرة	تاريخ السفر من الاسكندرية	تاريخ العودة من مرسيلا	أسعار السفر
النيل	٧ مايو سنة ١٩٣٦	١٣ مايو سنة ١٩٣٦	على الباخرة النيل
"	٢١ مايو	٢٧ مايو	مليم جنيه
"	٤ يونيه	١٠ يونيه	الدرجة الأولى ٦٠٠ ١٥
كوثر	" ١١	" ١٧	" الثانية ٦٧٥ ١٢
النيل	" ١٨	" ٢٤	" الثالثة ٨٠٠ ٧
كوثر	" ٢٥	أول يولي	
النيل	٢ يولي	" ٨	أسعار السفر
كوثر	" ٩	" ١٥	على الباخرة كوثر
النيل	" ١٦	" ٢٢	مليم جنيه
كوثر	" ٢٣	" ٢٩	الدرجة الأولى ٦٢٥ ١٤
النيل	" ٣٠	٥ أغسطس	" الثانية ٧٥٠ ٩
"	١٣ أغسطس	١٩ من	" الثالثة ٥٠٠ ٥
"	" ٢٧	٢ سبتمبر	" الرابعة ٩٢٥ ٢
كوثر	.....	" ٩	
النيل	١٠ سبتمبر	" ١٥	
كوثر	" ١٧	" ٢٣	
النيل	" ٢٤	" ٣٠	